﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ١٢ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا ١٣ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ١٤﴾

[المزّمّل: 12 - 14]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

بيانُ أنواعِ العذابِ الَّتي هُدِّدَ بها المكذِّبونَ

أمّا مناسبةُ الآيةِ الأولى لِما قبلَها؛ فهي أنَّهُ لمّا كانَ ما سبقَ مناديًا بعذابِ المكذِّبينَ؛ استُؤنفَ ببيانِ أنواعِ ما أفهمَهُ التَّهديدُ مِنْ مطلقِ العذابِ، فقيلَ: ﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا﴾ الآية[1]، وفي هذا الاستئنافِ تعليلٌ لِما سبقَ مِنَ الأمرِ بتركِ تعذيبِ المكذِّبينَ للهِ تعالى، والأمرِ بإمهالِهم[2]، وأمّا مناسبةُ الآيةِ الثّانيةِ للأولى؛ فهي أنَّهُ لمّا أتمَّ ما يقابلُ تكذيبَهم؛ أتبعَهُ ما يقابلُ النِّعمةَ، فقالَ: ﴿وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ﴾ الآية[3]، وأمّا مناسبةُ الآيةِ الثّالثةِ للثّانيةِ؛ فهي أنَّهُ تعالى لمّا وصفَ العذابَ؛ أخبرَ أنَّهُ متى يكونُ ذلكَ[4].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَنكَالٗا﴾: (نكل): أصلٌ يدلُّ على منعٍ وامتناعٍ[5]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: نكلَ عن الشَّيءِ: ضَعُفَ، وعَجُزَ، ونكَّلتُهُ: قيَّدتُهُ[6]، والنِّكْلُ: قيدُ الدّابَّةِ، وحديدةُ اللِّجامِ[7]؛ لكونِهما مانعينِ، والجمعُ: الأنكالُ[8]، ونكِلَ يَنْكَل: تميميَّة، ونَكَل حجازيَّة، يقالُ: نَكَل الرجلُ عن صاحبِهِ؛ إذا جَبُنَ عنهُ[9]، قالَ أبو زَيْدٍ: نَكَلَ؛ إذا أرادَ أنْ يَصْنَعَ شَيئًا، فَهابَهُ، ونَكَلَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 20.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 256، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 51.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 21.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 690، والبقاعي، نظم الدرر: 21/ 21.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نكل).
(6) الأصفهاني، المفردات: (نكل).
(7) الجوهري، الصحاح: (نكل).
(8) الأصفهاني، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (نكل).
(9) الخليل، العين: (نكل).

عَنِ اليَمينِ: امتَنَعَ مِنها، ونَكَلَ بِهِ يَنْكُلُ مِنْ بابِ قَتَلَ نُكْلَةً قَبيحَةً: أصابَهُ بِنازِلَةٍ، ونَكَّلَ بِهِ بِالتَّشْديدِ مُبالَغَةٌ أيْضًا، والاسْمُ النَّكالُ[1]، والمرادُ هنا: القيودُ[2].

2) ﴿وَجَحِيمًا﴾: (جحم): أصلٌ يدلُّ على عِظَمِ الحرارةِ وشدَّتِها، ومِن ذلكَ: الجاحِمُ، وهو المكانُ الشَّديدُ الحرِّ[3]، وجحمتا الأسدِ: عيناهُ؛ لتوقُّدِهما[4]، وجَحَمَ الرّجلُ: فتحَ عَينيهِ كالشّاخصِ، والعَينُ جاحِمَةٌ، وجَحَّمَني بعينَيهِ تَجْحيمًا: أحَدَّ إليَّ النظر، والأجْحَمُ: الشَّديد حُمرةِ العَين معَ سَعَتِها، والمَرأةُ جَحْماءُ[5]، والجحيمُ: النّارُ الشَّديدةُ التَّأجُّجِ والالتهابِ[6]، وهو المرادُ هنا[7].

3) ﴿غُصَّةٍ﴾: الغُصَّةُ: ما غصَصْتَ بهِ[8]، وهي ما يَنْشَبُ بالحَلْقِ، ويَعْترِضُ فيهِ مِن عَظْمٍ أو غيرِهِ[9]، وغَصِصْتُ بِالطَّعامِ غَصَصًا مِنْ بابِ (تَعِبَ)، فَأنا غاصٌّ وغَصّانُ ومِنْ بابٍ (قَتَلَ) لُغَةٌ، والغُصَّةُ بِالضَّمِّ ما غَصَّ بِهِ الإنْسانُ مِن طَعامٍ أو غَيْظٍ عَلى التَّشْبيهِ، والجَمْعُ غُصَصٌ، مِثْلُ غُرْفَةٍ وغُرَفٍ، ويَتَعَدَّى بِالهَمْزَةِ، فَيُقالُ: أَغْصَصْتُهُ بِهِ[10]، والمرادُ بكونِ الطَّعامِ ذا غُصَّةٍ: أنَّهُ غيرُ سائغٍ، يأخذُ بالحلقِ، فلا هو نازلٌ، ولا هو خارجٌ[11]، وذلكَ الطَّعامُ هو الزَّقّومُ، والضَّريعُ[12].

4) ﴿تَرْجُفُ﴾: (رجف): أصلٌ يدلُّ على اضطرابٍ، ومِنْ ذلكَ يقالُ: أرجفَ النّاسُ في الشَّيءِ؛ إذا خاضوا فيهِ، واضطربوا[13]، والرَّجفةُ: الزَّلزلةُ[14]، ورَجَفَ الشّيءُ يَرجُفُ رَجْفًا ورَجَفانًا كرجَفانِ البعيرِ تحتَ الرَّحْلِ، وكما تَرْجُفُ الشَّجرةُ؛ إذا رجَّفَتْها الرّيحُ، وكما

(1) الفيومي، المصباح المنير: (نكل).
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 46.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جحم).
(4) الأصفهاني، المفردات: (جحم).
(5) الجوهري، الصحاح: (جحم).
(6) الخليل، العين: (جحم).
(7) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 46.
(8) ابن سيده، المخصص: (غصص).
(9) الزبيدي، تاج العروس: (غصص).
(10) الفيومي، المصباح المنير: (غصص).
(11) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 46.
(12) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 689.
(13) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (رجف).
(14) الجوهري، الصحاح: (رجف).

تَرجُفُ الأسنان؛ إذا نُفِضَت أصولُها، ونحوُهُ رَجَفَتِ الأرضُ تزلزلَتْ، ورَجَفَ القوم: تهيَّؤوا للحرب، وأرجَفوا: خاضوا في الأخبار السَّيِّئَةِ من الفِتنةِ ونحوِها[1]، والرَّجفةُ: كلُّ عذابٍ أُنزل، فأخذ قومًا، فهو رَجفةٌ وصيحةٌ وصاعقةٌ، والرَّعدُ يرجفُ رَجفًا ورجيفًا، وهو تردُّد هدَّته في السَّماء، والمرادُ برجفِ الأرضِ والجبالِ: اضطرابُهما وتحرُّكُهما تحرُّكًا شديدًا[2].

5) ﴿كَثِيبًا﴾: (كثب): أصلٌ يدلُّ على تجمُّعِ شيءٍ مُحاطٍ به، وعلى قُربٍ[3]، ومِن ذلكَ يقالُ: يُرْمَى عن كثبٍ، أي: عن قُرْبٍ، وكلُّ ما انصَبَّ في شيءٍ، واجتمعَ؛ فقد انكثبَ فيه[4]، وكَثَبْتُ الترابَ ونحوَهُ كَثْبًا، فانكثَبَ، أي: نَثَرتُهُ، وسُمّي الكثيبُ لدقَّةِ تُرابِه، كأنَّه منثورٌ بعضُهُ فوقَ بعضٍ رَخاوةً[5]، والمرادُ بالكثيبِ المَهيلِ: الرَّملُ المجتمعُ الَّذي يمرُّ تحتَ الرِّجلِ؛ إذا وطِئْتَهُ، وإذا أخذتَ أسفلَهُ؛ انهالَ، وسالَ[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقولُ تعالى ذكرُهُ: إنَّ عندَنا لهؤلاءِ المكذِّبينَ قيودًا ونارًا مُضْطَرِمةً مُسَعَّرةً، وطعامًا يَغَصُّ بهِ آكلُهُ، فلا هو نازلٌ عن حَلْقِهِ، ولا هو خارجٌ منهُ، وعذابًا مؤلِمًا موجِعًا، وذلكَ يكونُ يومَ تَضْطَرِبُ الأرضُ والجبالُ اضطرابًا شديدًا، وتكونُ الجبالُ رَمْلًا سائلًا مُتناثِرًا[7].

سـوءُ مـآلِ المكـذِّبينَ يـومَ القيامةِ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾:

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِما بينَهما

تـولّي اللهِ عقابَ المكذِّبينَ علَّةُ تركِ النَّبيِّ لهم

(1) الخليل، العين: (رجف).
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 558.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كثب).
(4) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (كثب).
(5) الخليل، العين: (كثب).
(6) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 310.
(7) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 20/ 690 - 693، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 256.

مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّ هذهِ الآيةَ تعليلٌ للأمرِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾[1]، فكأنَّهُ قيلَ: كِلْ أمرَهم إليَّ، ومهِّلْهم قليلًا؛ لأنَّ عندي ما أنتقمُ بهِ منهم أشدَّ الانتقامِ[2].

نكتةُ توكيدِ ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾:

أُكِّدَ قولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾ بـ: ﴿إِنَّ﴾، واسميَّةِ الجملةِ؛ للرَّدِّ على مَن يُكذِّبُ بمضمونِ الكلامِ[3]، وللعنايةِ بمضمونِهِ؛ لكونِ العذابِ الَّذي فيهِ عذابَ ربِّ المَشرقِ والمَغربِ.

عـقـابُ الـلـهِ للمكذِّبينَ واقعٌ لا محالةَ

دلالةُ التَّعبيرِ بضميرِ الجَمْعِ:

إضافةُ (لدى) إلى نونِ العظمةِ في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾؛ لإبرازِ عظمةِ ما أعدَّهُ اللهُ تعالى مِنَ العذابِ للمكذِّبينَ، وهولِهِ؛ إبلاغًا في ترهيبِهم مِن التَّكذيبِ، وفي ترغيبِهم في الإيمانِ، ولا يتعانَدُ مع كونِ هذا الضَّميرِ للتَّعظيمِ لكونِهِ للاستِتباعِ، أي: أنْ يُرادَ بهِ اللهُ ﷻ وملائكةُ العذابِ.

عظمةُ ما أُعِدَّ مِـنَ الـعـذابِ للمكذِّبينَ

نكتةُ التَّقديمِ:

قُدِّمَ قولُه: ﴿لَدَيْنَآ﴾ على قولِه: ﴿أَنكَالًا﴾؛ على خلافِ الظَّاهرِ في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾؛ لتعجيلِ مَساءةِ المكذِّبينَ، وتخويفِهم عندَ سماعِ هذا الكلامِ، وللتَّشويقِ للمؤخَّرِ الَّذي هو أنواعُ ما أُعِدَّ لهم مِنَ العذابِ.

مَساءةُ المكذِّبينَ مُعجَّلةٌ

دلالةُ الكِنايةِ في ﴿لَدَيْنَآ﴾:

كنَّى النظمُ الكريمُ بالظَّرفِ ﴿لَدَيْنَآ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾ عن دارِ الآخرةِ والجَزاءِ؛ إذ الظَّرفُ المكانيُّ المضافُ إلى ضميرِ الجلالةِ والعظَمةِ المنزَّهِ عن المكانِ أُريدَ بهِ لازمُهُ، وهو

الدُّنيا دارُ عمَلٍ والآخـرةُ دارُ الجَزاءِ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 256، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 51.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 265، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 119.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 20.

الدّارُ الآخِرة، التي يَنسِبُ اللّه تعالى مكانَها لذاتِهِ الجَليلة؛ لبيانِ أنَّ تلك الدارَ دارُ القَرار والحُكم على دارِ الدُّنيا الَّتي هي لدَينا، وقريبةٌ منّا الآن، وفي التعبيرِ عنها بالقُرب منَ اللّه تعالى إشارةٌ إلى قُربها وتحقُّقِ وقوعِها، فلا سبيلَ للشكِّ والإنكارِ بما أعدَّه اللّه من عذابٍ في دارِ الجَزاء التي هي عندَه ولدَيه.

سرُّ تنكيرِ ﴿أَنكَالًا﴾ وجَمْعِهِ:

الأنكالُ العَظيمة جزاءُ تلك الأفعالِ الشَّنيعة

تنكيرُ الأنكالِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾؛ لقصدِ تعظيمِها، وتهويلِها[1]، أي: أنكالًا فظيعةً هائلةً، لا يَعْلَمُ قَدْرَ هَوْلِها إلّا اللّهُ، ودلّتِ الجمعيَّةُ أيضًا على كثرةِ تلك الأنكالِ وتعدُّدِها؛ ليكونَ أكثرَ تهديدًا وتَخويفًا لكلِّ مُكذِّبٍ من المُكذِّبين.

علَّة التَّعبير بـ(الجَحيم):

العقابُ مناسبٌ للذَّنب وما تلبَّسَ به مِن أحوالٍ

أوثِرَ وصفُ (الجحيمُ) دونَ غيرِها مِن أوصافِ النّارِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَحِيمًا﴾؛ للدِّلالةِ على شدَّةِ اتِّقادِها، أي: نارًا حاميةً جدًّا شديدةَ الاتِّقادِ؛ جزاءً على ما يُحدِثُه التَّكذيبُ في نُفوسِ المُكذِّبينَ، وهم يَشرَبونَ الشَّرابَ البارد، ويتنعَّمون باللِّباسِ والثِّياب، ويتكلَّفون أنواعَ الرَّاحة[2].

سِرُّ تنكيرِ ﴿وَجَحِيمًا﴾:

هَوْلُ الجحيمِ لا تحيطُ بِهِ العبارةُ

تنكيرُ الجحيمِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَجَحِيمًا﴾: للتَّعظيمِ والتَّهويلِ[3]، أي: جحيمًا هائلًا فظيعًا، لا تحيطُ بهَوْلِهِ العبارةُ، وهذا إبلاغٌ في التَّرهيبِ، يدلُّ على غضبِ اللّه على المُعذَّبِ؛ إشارةً إلى عظَمِ الذَّنب، ولا يبعُدُ أنْ يكونَ التنكيرُ للنوعيَّة؛ إذ جحيمُ نارِ الآخرة ليس كجَحيمِ نارِ الدُّنيا، فهي نوعٌ خاصٌّ من التوهُّجِ والاحتراقِ واللهيب.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 271.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 20 - 21.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 271.

غرضُ تنكيرِ ﴿وَطَعَامًا﴾:

طعامُ المُعذَّبينَ شديدُ الفظاعةِ

تنكيرُ (الطَّعام) في قولِهِ ﷻ: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾؛ للتَّعظيم والتَّهويلِ[1]، أي: طعامًا هائلًا فظيعًا؛ لأنَّ طعامَهُم في الدُّنيا كانَ النَّعيمُ فيه عليًّا، فعوقِبوا بعكسِه ذاتًا وصفةً في الآخرة، ويحتملُ أيضًا أنْ يكونَ التنكيرُ للنوعيَّة؛ إذ نوعُ الطَّعام يختلفُ في جنسِهِ وحقيقتِهِ عن طعامِ الدّنيا، فهو لا يُسمِنُ، ولا يُغني من جوع.

بلاغةُ وصفِ العذابِ بـ ﴿ذَا غُصَّةٍ﴾:

الطَّعامُ سببُ الغُصَّةِ

وصفُ الطَّعامِ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ - بأنَّهُ ذو غُصَّةٍ - واردٌ على سبيلِ المجازِ العقليِّ لأدنَى ملابَسةٍ؛ فإنَّ الغُصَّةَ عارضٌ في الحَلْقِ، سببُهُ الطَّعامُ أو الشَّرابُ الَّذي لا يُستساغُ؛ لبشاعةٍ أو يُبوسةٍ[2]، وهذا يُقابلُ ما كانوا يُعانونه مِن تصفيةِ المآكلِ والمشاربِ، وإفراغِ الجهدِ في الظَّفَرِ بجميعِ المآربِ[3]، فلَمَّا رتَّبوا على ذلك النَّعيمِ التَّكذيبَ والكفرَ، وكان هذا ترتيبَ شيءٍ على شيءٍ لا يترتَّبُ عليه؛ عاقبَهم اللهُ بعكسِ هذا النَّعيمِ.

نكتةُ تنكيرِ ﴿غُصَّةٍ﴾:

بشاعةُ الطَّعامِ المتَّصفِ بالغُصَّةِ

تنكيرُ لفظ: ﴿غُصَّةٍ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾؛ للتَّفخيم، أي: غُصَّةٍ عظيمةِ الشَّأنِ والقدرِ، وفي ذلكَ مزيدُ تنفيرٍ مِنَ الطَّعامِ الموصوفِ بها؛ إبلاغًا في التَّنْفيرِ مِمَّا استوجَبَ ذلكَ العقابَ مِن ذنبٍ.

سرُّ التَّعبيرِ بالعذاب:

العذابُ يقطعُ كلَّ لذَّةٍ

عُبِّرَ بالعذابِ دونَ غيرِهِ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ للدِّلالةِ على أنَّهُ لا يدعُ لهم عُذوبةً بشيءٍ مِنَ الأشياءِ أصلًا[4]، فهو عذابٌ شديدٌ يقطعُ كلَّ لذَّةٍ، فهو مقابلٌ لتلذُّذِهم بالنَّعيمِ وعُذوبتِه.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 271.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 271.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 211.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 21.

غرضُ تنكيرِ ﴿وَعَذَابًا﴾:

لِرَحمتِهِ تعالى تفرُّدٌ ولِعَذابِهِ تميُّزٌ

تنكيرُ المعطوف: ﴿وَعَذَابًا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ للنَّوعيَّةِ، فيفيدُ أنَّ هذا العذابَ نوعٌ آخرُ أشدُّ ممّا تقدَّمَ، وأكملُ[1]، لا يعرفُ كُنْهَهُ إلّا اللّهُ تعالى[2].

نكتةُ وصفِ العذابِ بالأليمِ:

وُصِفَ العذابُ بالأليمِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ ليُقابلَ ما ذُكِرَ في الآيةِ السّابقةِ من لذَّةِ النَّعمةِ، فإنَّ الألمَ ضدُّ اللَّذَّةِ[3]، وأفادَ الوصفُ أيضًا شدَّةً وكمالًا فوقَ حقيقةِ العَذاب، واندفَعَ بهذا الوصفِ كونُهُ عذابًا لا يُؤلِمُ، أو كونُهُ عذابًا مؤقَّتًا لا يدومُ أذاهُ.

دلالة صيغةِ (فعيلٍ) في ﴿أَلِيمًا﴾:

ألـمُ عـذابِ المكـذِّبينَ بالـغٌ شديدٌ

جيءَ بصيغةِ: (فعيلٍ) في قولِهِ ﷻ: ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ - فلم يقل: (مُؤلِمًا) - للمبالغةِ في اتِّصافِ العذابِ بالألمِ، فجهاتُ الإيلامِ فيه غيرُ محصورةٍ، وكذلك آثارُه في المعذَّبِ غيرُ معدودةٍ، مع ضميمةِ ميزةِ رعايةِ الفاصلةِ، وفي إسنادِ الألَمِ إلى العذابِ مجازٌ عقليٌّ علاقتُهُ السَّببيَّةُ؛ إذ المُؤلِمُ هو اللّه تعالى؛ لكنْ لمّا كان العذابُ سَبَبًا في إيصالِ الألمِ إلى المُعذَّبين؛ نُسِبَ التَّأليمُ له، ويحتملُ أنْ تكونَ صيغةُ (فعيل) بمَعنى المفعول، أي: عذابٌ مُؤلَم، والغرضُ المبالغةُ في وصفِ العذابِ بالتأليمِ؛ إذ العذابُ من شدَّتِه يتألَّمُ بِهِ.

سرُّ ترتيبِ المذكوراتِ في الآيةِ:

شمولُ العذابِ للظّاهرِ والباطنِ

بُدِئَ بذكرِ الأنكالِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾؛ لأنَّ أشدَّ شيءٍ على الإنسانِ منعُهُ مِنَ الحركةِ، فذُكِرَتِ الأنكالُ الَّتي

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 690.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 256، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 51، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 388.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 271.

تضادُّ ما هم فيهِ مِنَ النّعمةِ والعزِّ اللّذَينِ يمرحون فيهما، وهي جزاءٌ على تقييدِهم أنفسَهم بالشَّهواتِ عن اتِّباعِ الدّاعي إلى الحقِّ، وسعيِهم في المشي في الأهواءِ، ولمّا كانَ ذلكَ مُحرقًا للباطنِ؛ أُتبِعَ حريقَ الظّاهرِ، فقيلَ: ﴿وَجَحِيمًا﴾، ولمّا تمَّ ما يقابلُ تكذيبَهم؛ أُتبِعَ ما يقابلُ النّعمةَ، فقيلَ: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾، ولمّا خُصَّ؛ عُمَّ، فقيلَ: ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾[1].

دلالة المضارعة:

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ ﷻ: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾؛ لأنَّ هذا الرَّجفَ مستقبلٌ، والمضارعُ يَصلُحُ للدِّلالةِ على الاستقبالِ، ولتصويرِ هذا الحدثِ العظيمِ وتهويلِهِ، والدِّلالةِ على أنَّهُ يستمرُّ، ويتكرَّرُ إلى أنْ يكونَ بهِ انفراطُ أجزاءِ الأرضِ والجبالِ، وانحلالُهما[2].

رجـفُ الأرضِ والجبالِ حدثٌ عظيمٌ يحصلُ في المستقبلِ

دلالةُ التَّعريفِ ﴿ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾:

تعريفُ الأرضِ والجبالِ بـ(أل) في قولِهِ ﷻ: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾؛ للجنسِ الشّاملِ لكلِّ أفرادِهِ، أي: يومَ تَرْجُفُ الأرضُ كلُّها، والجبالُ كلُّها[3]، وفي هذا تذكيرٌ بكونِه تعالى الخالقَ لهما، وبذلك تبرز آثار القدرة الإلهية، فيَعْظُم ترهيبُ أهل الكفر والشِّرك؛ لأنَّ هذه القدرة الفريدةَ مِن شأنِها أنْ يكون لديها أنكالٌ وجحيمٌ، وطعامٌ ذو غصَّةٍ، وعذابٌ أليمٌ.

الرَّجفةُ تشملُ الأرضَ والجبالَ كلَّها

سرُّ إفرادِ الجبالِ بالذِّكرِ:

أُفرِدَتِ الجبالُ بالذِّكرِ في قولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ - مع أنَّها داخلةٌ في الأرضِ - لأنَّها أشدُّ أجزاءِ الأرضِ[4]، فإذا رجفَتْ؛ فرجفُ غيرِها حاصلٌ مِن بابِ أوْلَى، وذكرُها تمثيلٌ

رجـفُ الأشـدِّ يستدعي رجفَ الأخفِّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 20 - 21.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 271.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 21.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 21.

وتفصيلٌ لعموم رجفِ الأرضِ، به يشتدُّ بيانُ القدرة الإلهيَّة مِن جهةٍ، وبيانُ أهوال القيامة وفخامتها مِن جهة أخرى.

نكتةُ الإسنادِ على خلاف الظَّاهر ﴿تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ﴾:

رجـفُ الأرضِ والجبالِ بفعلِ اللهِ تعالى

إسنادُ الرَّجفِ إلى الأرضِ والجبالِ في قولِهِ ﷻ: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ﴾: مجازٌ عقليٌّ، فاللهُ تعالى في الحقيقةِ هو الَّذي يجعلُها ترجفُ؛ للإبلاغ في تصوير شدَّة الرَّجْفِ وعظمتِه، وفي تهويلِ ذلك اليوم؛ ليرتدعَ المُكذِّبون، لعلَّهم يُؤمنونَ قبلَ وقوعِهِ.

بلاغةُ العطفِ بالواوِ دونَ الفاءِ في ﴿وَكَانَتِ﴾:

كـونُ الجبالِ كثيبًا مهيلًا خصلةٌ على حيالِها

الظّاهرُ العطفُ بالفاءِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾؛ لترتُّبِهِ على الرَّجفةِ، وإنَّما عُطِفَ بالواوِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّهُ خصلةٌ أخرى على حيالِها، غيرُ ملحوظٍ ترتُّبُها على الرَّجفةِ؛ وإنْ ترتَّبَتْ على الرَّجفةِ في نفسِ الأمرِ[1]، والغرضُ مِن ذلكَ الإبلاغُ في التَّهويلِ والتَّفخيمِ لذلك اليومِ، والألصقُ بذلك التَّعْدادُ بالواو، لا التَّسبُّبُ بالفاءِ.

دلالة التَّعبير بالماضي في ﴿وَكَانَتِ﴾:

كـونُ الجبالِ كثيبًا مهيلًا متحقِّقٌ يقينًا

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (وتكونُ الجبالُ كثيبًا مهيلًا)، كما قال تعالى: ﴿تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ﴾، فنظم الرَّجْف فعلًا مضارعًا، وإنَّما عُبِّرَ بالماضي في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾؛ للتَّنبيهِ على تحقُّقِ وقوعِهِ[2]، حتَّى كأنَّهُ وقعَ في الماضي[3]، فيتأكَّدُ الوعيدُ والعذابُ الأليمُ للمُكذِّبينَ، ويَقْوَى تصويرُ المضارع: ﴿تَرۡجُفُ﴾ لمعناه.

سِرُّ الإظهار في موضع الإضمار ﴿وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ﴾:

صيرورةُ الجبالِ كثيبًا مَهيلًا أمرٌ مُتقرِّرٌ

أُظهرتِ الجبالُ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾؛ لمكانِ

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 390.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 382.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 271.

الالتباسِ، ولكمالِ التَّقرُّرِ[1]، وفيه دعوة المُتلقِّي إلى استحضار حقيقتها ذاتًا وصفةً، وهو يتلقَّى الإخبارَ عنها بصيرورتها كثيبًا مهيلًا، فتعْظُم قدرة الله في بصره وبصيرته، ويحصلُ له التَّرهيبُ العظيمُ.

سرُّ إفراد ﴿كَثِيبًا﴾ مع كونِ الجبالِ جمعًا:

الجبالُ على كثرتِها تكونُ رملًا مجتمعًا ضعيفًا

أُفرِدَ خبرُ (كانَ) في قولِه تعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ - مع أنَّ الجبالَ جمعٌ - للدِّلالةِ على شدَّةِ الاختلاطِ والتَّلاشي، حتَّى كأنَّ الجبالَ على كثرتِها صارَتْ رملًا مُجْتمِعًا[2]، ففيه إبراز لمدلولِ اللَّفظة: ﴿كَثِيبًا﴾، وإبلاغٌ في تحقيقِه؛ ببيان غاية ضعف الجبال، بعد أنْ كانت مراسيَ الأرضِ وأوتادَها.

غرضُ تنكيرِ ﴿كَثِيبًا﴾:

تنكيرُ لفظ: ﴿كَثِيبًا﴾ في قولِه ﷻ: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾: للتَّحقيرِ، أي: كثيبًا حقيرَ الشَّأنِ، وهذا إبلاغٌ في تقريرِ دلالة الإفراد.

سرُّ الوصفِ ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾:

دفعُ توهُّمِ صلابةِ الكثيبِ

لمّا كانَ الكثيبُ ربَّما أُطلِقَ مجازًا على ما ارتفعَ، وإنْ لم يكُنْ ناعِمًا؛ قيلَ: ﴿مَّهِيلًا﴾، أي: رملًا سائلًا ليِّنًا منثورًا[3]، ففيه تمكين لدلالة الموصوفِ؛ إبرازًا لهولِ حالِ الجبالِ في ذلك اليوم، فهو كالاحتراس البلاغيِّ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأنكالُ والقيودُ:

الأنكالُ أخصُّ مِنَ القيودِ؛ لأنَّ الأنكالَ هي القيودُ الثَّقيلةُ[4]، وقد عُبِّرَ بها هنا؛ للدِّلالةِ على شدَّةِ ما يُقاسيهِ المكذِّبونَ.

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 390.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 21.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 23.
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 557، والبقاعي، نظم الدرر: 21/ 20.

الرَّجفُ والزَّلزلةُ والدَّكُّ:

الرَّجفُ: الاهتزازُ والاضطرابُ مِنْ فزَعٍ وهَوْلٍ[1]، والزَّلزلةُ: الاضطرابُ الشَّديدُ، والدَّكُّ: التَّسويةُ[2]، وقد عُبِّرَ بالرَّجفِ هنا؛ للدِّلالةِ على اقترانِ الاهتزازِ والاضطرابِ بالخوفِ والفزعِ والهَوْلِ.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 389.

(2) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 525 - 526.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والستون،
سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والستون، سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 64 ، 806 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-647-38-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 64 : المجلد الرابع والستون، سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-647-38-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6817852 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"